الدكتور بلقاسم الطاهر قسم التاريخ جامعة تلمسان

الأمير عبد القادر رجل دولة و مقاوم

بيوغرافية الأمير عبد القادر

a) مولد الأمير عبد القادر و نشأته و نسبه

اختلف المؤرخون حول تحديد تاريخ ولادة الأمير عبد القادر . فهناك ما يشير أنه ولد في 23 رجب 1223 هـ الموافق ل 07 سبتمبر 1808 م1, ومنهم من أشار إلى انه ولد في 23 رجب الموافق 1222 هـ الموافق لـ ماي 1807 م2, بالقيطنة وولد ه محي الدين , حيث نشأ وترعرع في هذه القرية و نهل العالم و المعرفة على يد والده على الطريقة القادرية و لما بلغ سن العاشرة حفظ القران الكريم إضافة على أصول الشريعة و الحديث على يد احمد بن الطاهر قاضي أرزيو كما تعلم على يده أيضا الرياضيات و الجغرافيا و التاريخ .

وعندما أتم الثانية عشر من عمره أرسله والده إلى مدينة وهران و التي كان يشرف عليها أحمد بن خوجة ليتعلم مبادىء اللغة العربية ويدرس آراء (أبو الفدى و المسعودي و ابن خلدون) , وقد مكث فيها سنتين نال خلالهما شهادة حافظ أهلته لترتيل القرآن الكريم في الجوامع و الاحتفالات , وقد لاحظ عبد القادر خلالا إقامته بوهران أن الفارق الكبير بين أهالي غريس وابناء وهران .

2-طابع الدولة الأميرية

أ-النظام السياسي

بعد مبايعة الأمير المبايعة العامة من قبل الشعب, ونصبه الجزائريون سلطانا عليهم ,أخذ على عاتقه إحياء الدولة الجزائرية من جديد ونفخ روح التنظيم في صفوفها :

جهاز الحكم : بدا الأمير عبد القادر مرحلة التنظيم بتشكيل جهاز الحكم أي الوزارة , وقد تألفت من المقاعد التالية3:

رئيس الوزراء : ويقوم بهذه المهمة الأمير عبد القادر الملقب بناصر الدين

- نائب الرئيس .
- وزير الخارجية .
- وزير خزينة المملكة .
- وزير الخزينة الخاصة .
- وزير الأوقاف .
- وزير الأعشار و الزكاة

ثم يأتي الوزراء الكتبته و هو ثلاثة – حسب الحاجة – ثم الحاجب ، وقد اتخذت هذه الوزارة ، مدينة معسكر مقرا لها ، وقد تختار الأمير هذه المناصب أفضل الرجال ممن تتوفر فيهم الكفاءة العلمية و الخبرة الفنية و المهارة السياسية ، و بذلك استطاع الوزراء الاضطلاع بمسؤولياتهم على أفضل وجهة

ممكن فلم تمض إلا فترة قصيرة حتى اشتهرت و عن جدارة بأنها من أفضل وزارات القرن التاسع عشر4 .

كمت تختار الأمير الحاشية به من أخلص قادة البلاد العسكريين ، و من العلماء و القضاة فكون بهم مجلسا للشورى ، بلغ عدد أفراد عشر عضوا يمثلون المناطق المخلفة ، وجعل على رأسهم قضاة الجزائر 5

ثم بعد ذلك قام الأمير بإرسال مبعوثين إلى عمال الحكومة السابقة (العهد العثماني) ، و الذين لا زالوا في مناطق لم يصلها الاستعمار طالبا منهم إعلان الولاء للحكومة الجديدة و الرجوع إليها في كل أمورهم ، فاستجابت له الأغلبية الساحقة .6

أما الذين أبوا الدخول في طاعته مغتنمين فرصة الذعر و الفوضى المنتشرة في البلاد، و اختاروا الاستقلال بادارتهم غير مبالين .بما يترتب عن عصياهم من تشتيت لوحدة الشعب ، هؤلاء سرعان ما أخضعهم الأمير بالقوة ، وعين في مناصبهم رجالا توافرت فيهم الكفاءة و الولاء .7

ب -الجانب الإداري

لقد نجح الأمير عبد القادر في سياسته التي تربأ عن الشعور بالوحدة القبلية ، إلى الشعور بالوحدة الوطنية ، ولهذا اتسعت رقعة ملكه ، وهكذا عمل على إعادة تقسيم البلاد على مقاطعات ، و بالضبط إلى ثماني مقاطعات برأس كل منها " خليفة " يعينه الأمير 8 وقسم المقاطعة إلى دوائر ووضع على رأس كل منها آغا ، وتضم الدائرة عددا من القبائل على رأس كل قبيلة منها قائدا ، ثم تتفرع إلى بطون و عشائر يحكم العشيرة "شيخ".

وهذا التنظيم الهرمي الذي يأخذ بعين الاعتبار العلاقات البشرية و الاجتماعية العامة السائدة في ذلك الوقت جعل التحكم في أمور الدولة أمرا سهلا.

كان الأمير يصدر أوامره إلى خلفائه ، فتنقل بالتدرج إلى من دونهم ، وكذلك تدفع القضايا الكبرى من الشيخ إلى من يليه في المنصب ، حق تصل إلى الأمير، أما القضايا الآخرى فيقوم المسؤولون بالنظر فيها، كل حسب صلاحياته `.

وهذا الربط التدرجي بين الحكام ، لا يكون حاجزا بأي حال من الأحوال بين الأمير و أصحاب القضايا من أفراد شعبه ، فقد أمر مناديه بالمناداة في الأسواق : من كانت له شكوى على خليفة أو آغا أو قائد ... ، فليدفعها إلى الديوان الأميري من غير واسطة ، وإن ظلم أحد فلم يرفع ظلامته فلا يلومن إلا نفسه

بالاضافة على هذا أقبل الأمير على الوظائف الشرعية في كل عمالة و دائرة قاضيا بفضل القضايا الشرعية ، و على مذهب الإمام مالك ، و اشرط أن يكون فقيها نزيها مشهورا بالعفاف و القيام بأمور الدين و ربط ادارة هؤلاء القضاة بمراجعة قاضي القضاة و رئيس مجلسه الخاص ، كما نصب قاضيا للجيش 9

كان الأمير عبد القادر واعيا بالمخاطر التي قد تنجز عن ردة فعل قواة الاحتلال, فبادر إلى ترتيب عاصمة جديدة له فقد كان مصرا على مواصلة الكفاح المسلح إلا أنه هذه المرة إعتمد في الزمالة على نمط عمراني آخر يتماشى و متطلبات التنظيم الإجتماعي و الإقتصادي الذي تمليه ظروف الحرب10.

و الزمالة عبارة عن نوع من نظيم المدينة المتنقلة الضاربة في عرض الصحرء, و كانت هذه المدينة المتحركة تتكون من ثلاثة أقسام:11

1) الزمالة: في مقام الأمير و آل بيته و حاشيته
2) الدوائر: و فيها المدنيون من شعبه و النساء و الأطفال و الباعة و الصناع
3) المحلة: و هي معسكر الجند المحارب, و أماكن صنع السلاح و مستودعات الذخائر و المؤن, و لها مكان فسيح لإجتماع المجلس العام, و إتخد الأمير فيها مسجدا, و نظم مبادئ الباعة و أصباح السوق و جعل مكانم مستقلا و من هنا الزمالة و متعلقاتها على اتم م يكون من الانتظام و الالتزام المدني , و كان لها منظر جميل ترى منازلها من بعيد كأنها مدينة حافلة ذات قصور مشيدة و أبنية جميلة

أثر تنظيم الزمالة و جمالها حتى في العدو, فعندما هاجم الدوق دوال Daumal 12انبهر بها و قال عنها : لم يكن سكانها يقلون عن 60000 الف نسمة و لم ينقص منها عشر أجزاء و قد كانت تمتد من تاقدامت إلى جبال عمور, و كان علي العربي الذي يفقد عائلته أن يسير مدة يومين للعثور عليها.13

و قال الامير في وصف عائلته :"لقد كانت الزمالة تضم صناع السلاح و الخياطين, و جميع الحرف اللازمة لتنظيمها و كانت تشتمل على سوق عامرة يتردد اليها عرب التل 14

إن أقل ما نقول عن الزمالة أنها كانت مركزا حربيا و مقرا مدنيا لها مائتا الف نسمة, و كان الأمير يبث من هذه المدينة المتحركة جواسيسه, و يريل منها بعوثه, و فيها يستعد للحرب, و لم تزل تزداد قوة, و تتسع حتى أصبحت ملجئا عظيما و حصنا منيعا, و قد عين لحراستها و حمايتها أربع قبائل من العرب و فرقة من الجند النظامي, و قد طارت شهرة هذه المدينة المتحرة التي كانت تملك النجود و الأغوار, و هي تتردد بين الل و الترحال , بين الإقامة و الانتقال, و قد حرص الأمير على جعل نظام التعسكر محترما من الجميع, و منظما تنظيما دقيقا, و في ذلك يقول " عندما أضرب خيمتي يعرف كل أحد المكن الذي يشغله, لقد كان معي ثلاثمائة أو أربعمائة , إلى جانب الفرسان غير النظاميين من بني هاشم-الإغريسيين الذين كانو مخلصين لي إخلاصا شديدا و لم يكن من السهل الوصول إلي و لم أفعل ذلك حرصا على أمني الشخصي و لكي شعرت بضرورة تأمين متطلبات الجهاد في سبيل الله و قد وصعت فيه ثقتي لحماية الذراع الذي يحمل لواءه" 15

و قد كانت الزمالة بحجمها الكبير تحتاج لموارد مائية ضخمة لاسيما في المناطق الصحراوية فحيثما حلت تجف الآبار و ميه الجداول و لهذا أقام الأمير قوة خاصة من الشرطة لمنع تلويث المياه تبذيرها من قطعان الماشية أما الموارد التموينية (الحبوب و القمح والشعير)فكانت تجلب إليها أو تقوم قبائل الشمال بتقديمها عندما يطلب منها ذلك 16

3-حدود الدولة

لما تمت بيعة الأمير و استقام له الامر كانت حدود دولته تشتمل على مقاطعتين : مقاطعة تلمسان و مقاطعة معسكر ثم بدأت حدود دولته تتسع إلى ما وراء وادي شلف فأضاف مقاطعة ثالثة : هي مقاطعة مليانة و كان لكل هذه لمقاطعات مرافئ فتلمسان مرفأه رشقون و معسكر ميناء أرزيو و أما لمليانة مرفأ شرشال 17

ثم إزدادت رقعة الدولة حيث خلق " تيطري" تحت إمارة الأمير فجعلها مقاطعة رابعة ثم تزايدت الفتوحات في الجهات الشرقية و الجنوبية فإتسعت الإمارة على ما وراء بلاد مجانة قرب قسنطينة و في الجنوب على القفر فيما وراء وادي سوف حيث بلاد التوارق و اما في الشمال إلى ما وراء جبال زواوة فجل مقاطعة مجانة مقاطعة خامسة و مقاطعة سادسة و مقاطعة الجبال و برج حمزة مقاطعة سابعة كما جعل غرب الصحراء مقاعة ثامنة .18 وصلت المملكة عل أوج عظمتها في شن 1839 فكانت تشتمل على جميع مقاطعات البلاد الغربية إلى حدود المغرب الأقصى ما عدا مدينتي وهران و مستغانم ثم تمتد شرقا الى ما وراء بلاد مجانة ما عدا مقاطعة العاصمة و مدينة قسنطينة و بعض الساحل و في الشمال الى ما وراء جبال زواوة و في الجنوب أرض التوارق19

4-دبلوماسية الأمير عبد القادر

كانت للأمير عبد القادر صلات دولية واسعة ، مكثفة و متعددة و متنوعة مع كثير من ساسة العالم ، و قادته العسكرية و السياسيين و المفكرين ، وحظي بالتقدير و الاكبار من طرف الجميع بفضل مواقفه البطولية الخالدة في الحرب و السلم وسعة اطلاعه ، و تفهمه للمشاكل و عمق ثقافته و تفكيره و بعد نظره في القضايا و الأبعاد السياسية و العسكرية .20

و رغم كثرة ما كتب و ألف عنه فان جوانب كثيرة من نشاطه العسكري و حياته السياسية ، ما تزال مجهولة و ما يزال الباحثون و المنقبون يكشفون و يزيحون الستار و الغطاء عن البعض منها : مرة على مرة في أبحاثهم و دراساتهم الجديدة ، ذلك لان الأمريكان كثرو الاتصال ، و المراسلات للدول و الملوك و الأمراء ، و الحكام و الرؤساء والوزراء،والعلماء،والكتاب و السياسيين خلال معركة الكفاح المسلح (1830-1847)م وحتى في منفاه بفرنسا ودمشق (1848-1883) م .حاول الأمير عبد القادر الاستفادة متن الصراع القائم آنذلك بين الدول الاستعمارية خاصة فرنسا و انجلترا ، فارسل جكام هذه الدول ، و كانت له مراسلات كذلك مع الساسة و المسؤولين في كل من روما و برلين و فيينا و سان بطرسبوق (روسيا) ، إلى جانب اسطنبول و طنجة و مدريد وواشنطن ، و هذا يعني أن هناك رسائل كثيرة في هذه العواصم و غيرها ، تحوي حوادث و تفاصيل جديدة عن نشاط الأمير و كفاحه السياسي و العسكري ، تنتظر من يبحث عنها و يبرزها الى الوجود .

لقد راسل الأمير الملك الانجليزي و الحكومة الانجليزية ، عن طريق قناصلها و مدريد ، و طلب منها التأييد و المساعدة المادية ، بعد أن شرح لها شراسة جيش الاحتلال الفرنسي و خداع قادته ، و عرض على الحكومة الانجليزية أن يمنحها ميناء تنس ، أو غيره للاستثمار مقابل حصوله على الأسلحة و الذخائر الحربية 21

و ارسل الحكومة الأمريكية بواسطة قنصلها بطنجة ، و شرح لها خيانة الفرنسيين و عدم وفائهم بالعهود و طلب منها أن تدعمه و تؤيده بالأسلحة مقابل منحها مسناء أو منطقة على الساحل لصالح الأسطول البحري الأمريكي . كما قام بمراسلة السلطان العثماني عبد المجيد و الصدر الأغظم و شرح لها وضع البلاد و النكبات المتولية التي يلحقها جيش الاحتلال الفرنسي بجيوشه ، ثم طلب منهما المساعدة و التأييد ، و الدعم العسكري و السياسي .22

خلاصة:

لقد أخذت عملية بناء الدولة الأميرية تصورات عدة و سارت عبر تشعبات مختلفة في الوقت نفسه و لعل المنحى الإقليمي كان من مراكز الاهتمام الأول لدى الأمير.وأدرك هذا التصور عند الألمان بعد الحرب العالمية الأولى. إذ جعل من السعي إلي اجتياز الرقعة الجغرافية للوطن و التي شملت جل التراب الوطني و ضمها إلي الحدود التي كانت علي العهد التركي تقريبا, غايته الإستراتيجية الإقليمية إذ كان يرى في بعض النفوذ علي الصعيد القاري للوطن شرطا منهما يدرس السيادة و يعطي الدولة مكانتها و يقارب بين جهاتها و يلحم بين اهاليها , و يدفع اطماع الاحتلال التي كان يراها جلية في أعمال و تطلعات العدو المحتل فقد كانت مرامي المستعمر التو طينية و التوسعية سافرتا للعيان منهنا وضع الامير نصب عينيه هدف تحقيق الانتصار عبر حدود الوطن ما أقلق الادارة الاستعمارية , اذ ان المحتل لم يتوقف عند عتبة وضع اليد على الجهات و المناطق تدريجيا بها في المرحلة الاولى للاجتياح , و لكنه صار يتوسع بشكل اسرع عبر المناطق المختلفة الامر الذي دفع بالامير الي العمل الجاد علي بلوغ المناطق التي كانت لاتزال خارجتا عن سيادته من اجل ان يضمها و السيطرة عليها قبل فوات الاوان. وبهذا الطرح وضع الاسس الاقليمية لبناء الدولة الجزائرية التي اصبحت كواقع جغرافي اقليمي في شمال افريقيا , ترصخت عليه ادارة الامير و سياسته و دبلوماسيته , هذا التصور الاقليمي الذي ساير التطور العلمي في رسم الاقاليم و الوحدات السياسية و حاول الامير بناء الدولة علي حدود معينة محترمة مرسومة بمعالم علمية وطبيعية

بها هياكل عمرانية و تفاعل اجتماعي و اقتصادي الذي اجعز الستعمار و اقيم الحكم الراشد في جميع المجالات توضح في التطور الحضاري بالادارة و السياسة و الديبلوماسية.

الإحالات:

1-أديب حرب ، التاريخ العسكري و الإداري للأمير عبد القادر الازاج 1 ط2 دار الرائد ص : 70 .
2- يحيى بوعزيز ،الأمير رائد الكفاح الدار العربية ...للكتاب الجزائري ص 41
3-مسعود مجاهد ، كفاح الجزائر البطولي في عهد الأمير و بعد وفاته ، ط 2 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1974 ، ص : 195
4- بسام العسلي ، الأمير عبد القادر الجزائري ، ط3 ، دار النفائس ، بيروت 1986 ، ص 36
5-محمد بن عبد القادري الجزائري ، المصدر السابق ، ص : 166.
6-بسام العسلي ، المرجع السابق ، ص :38
7-..... الأمير عبد القادر الجزائري ديوان المطبوعات الجامعية 1988 ، ص 193 .
8-بسام العسلي ، المرجع السابق ، ص :38
9-عبد الله شريط و محمد الميلي ، المرجع السابق ، ص : 230
10-بسام العسلي ، الأمير عبد القادر ... ، ص : 65 .
11-المرجع نفسه : ص : 65
12-هو ابن الملك لويس فليب ، وقد تولى منصب الحاكم العام ، ينظر : تشرشل ، المرجع السابق ، ص : 212
13-المرجع نفسه ، ص : 212 .
14-نفسه ، ص : 213.
15- بسام العسلي ، الأمير عبد القادر ... ، ص ص : 66 – 67
16-المرجع نفسه ، ص 67 .
17-محمد بن عبد القادر الجزائري، المصدر السابق ، ص : 306.
18-المرجع نفسه ، ص : 67
19-اسماعيل العربي ، المرجع السابق ، ص : 220.
20-يحيى بوعزيز ميكيل دوايالزا ، المرجع السابق ، ص : 15 .
21-عبد الجليل التميمي ، بحوث ووثاءق غبر التاريخ المغربي تونس ، الجزائر ، ليبيا (1816-1871) ، دار التونسية للنشر ، تونس ، 1972 ص 358.
22-يحيى بوعزيز ميكيل دوايالزا ، المرجع السابق ، ص : 15